(الأدب العربي قديما وحديثا): المحاضرة التاسعة

السداسي الثاني

الشعر الإصلاحي

تعريفه، وظيفته، تاريخه في القديم والحديث، خصائصه،

تعد حركة **الإصلاح** في الأدب العربي ظاهرة أصيلة واكبت التحولات الاجتماعية والسياسية عبر العصور، حيث استُخدم الشعر كأداة للتغيير الأخلاقي، والتوجيه الديني، والتحرر الوطني.

1. تعريف الشعر الإصلاحي

الإصلاح ***لغةً***: من أصل "صَلُحَ"، أي ضد الفساد، وهو السعي إلى تقويم المعوجّ وإعادة الشيء إلى حالته السليمة (ابن منظور، *لسان العرب*). أما ***اصطلاحاً*:** فهو الشعر الذي يتخذ من الكلمة وسيلةً لتغيير الواقع الاجتماعي أو الديني أو السياسي، داعياً إلى الفضيلة، محارباً الرذيلة، وموجهاً الناس نحو قيم الحق والخير والجمال. فهو شعر رسالة، لا شعر ترف. وهو الشعر الإصلاحي هو شعر يسعى إلى إصلاح النفوس والمجتمع، ويقابل الشعر الذي يقتصر على الغزل أو اللهو.

2. وظيفة الشعر الإصلاحي

يرى **شوقي ضيف** أن "الشعر الإصلاحي في النهضة الحديثة ارتبط بالحركات الفكرية والدينية، وكان أداة للتنوير ومقاومة الاستعمار، موجّهاً الناس نحو الفضيلة والوعي القومي. أما **حنا الفاخوري** فيعرّفه بأنه الشعر الذي يهدف إلى "نبذ الفساد والدعوة إلى التجديد ومحاربة الخرافات والبدع والجهل"، وهو شعر ذو وظيفة اجتماعية وتربوية. ويصفه الرافعي بأنه شعر "الرسالة"، أي الذي يحمل غاية إصلاحية، سواء في الدين أو الأخلاق أو السياسة، ويبتعد عن الترف الفني الخالص. ويربط **أحمد حسن الزيات** الشعر الإصلاحي بالنهضة الفكرية الحديثة، ويؤكد أنه "شعر الوعي القومي، الذي ينهض بالأمة ويقاوم الاستعمار.

3. تاريخ الشعر الإصلاحي

بدأ الشعر الإصلاحي ببوادر "الحكمة" في الجاهلية، ثم تبلور بوضوح في صدر الإسلام لتثبيت القيم الجديدة، وفي العصور اللاحقة، تحول لنقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وصولاً للنهضة الحديثة والثورة الجزائرية حيث صار سلاحاً للتحرر والبناء.

1.3. العصر الجاهلي (الحكمة والسلام)

تمثل الشعر الإصلاحي في الجاهلية بما يُعرف بـ **"شعر الحكمة"**، الذي كان يهدف إلى حقن الدماء وإرساء مكارم الأخلاق في بيئة غلب عليها الصراع القبلي؛ وكان الشاعر المصلح في الجاهلية يتجاوز العصبية القبلية ليدعو إلى السلم والتعقل، وأبرز مثال على ذلك **زهير بن أبي سلمى**، الذي نظم معلقته الشهيرة للإشادة بالحارث بن عوف وهرم بن سنان لدورهما في إنهاء الحرب بين عبس وذبيان. واتسم هذا الشعر بالموضوعية والرزانة، مبتعداً عن الغلو والمبالغة، وكان نابعاً من تجربة حياتية عميقة. قال زهير بن أبي سلمي:

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ ... وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ
وَمَن لا يَزَل يَستَحمِلُ الناسَ نَفسَهُ ... وَلا يُغنِها يَوماً مِنَ الدَهرِ يُسأَمِ

2.3. الشعر الإصلاحي في صدر الإسلام (القيم الجديدة)

مع ظهور الإسلام، تحول الشعر إلى وسيلة لترسيخ العقيدة وإصلاح النفس البشرية وفق المبادئ القرآنية، حيث ركز الشعراء على ذم الخمر والميسر والتحلل الأخلاقي، ودعوا إلى العدل والمساواة. ولقد واجه هذا الشعر في بدايته اتهاماً بالضعف الفني بسبب انشغاله بالوعظ، لكنه اكتسب قوته من صدق العاطفة والهدف السامي. قالها **حسان بن ثابت** شاعر الرسول ﷺ، حين كان النبي في مجلس ومعه **الحارث المري**، وكان بين المسلمين وبعض قبائل العرب عهود ومواثيق. فخاف النبي ﷺ من غدر بعضهم، فأنشد حسان هذه الأبيات دفاعاً عن النبي، وذماً للغدر الذي اشتهر به بعض القبائل، وخاصة بني مرة، الذين لم يلتزموا بالعهود:

يا حارِ مَن يَغدِر بِذِمَّةِ جارِهِ ... مِنكُم فَإِن مُحَمَّداً لَم يَغدِر
إِن تَغدِروا فَالغَدرُ مِنكُم شيمَةٌ ... وَالغَدرُ يَنبُتُ في أُصولِ السَخبَرِ
وَأَمانَةُ المُرِّيّ حَيثُ لَقَيتَهُ ... مِثلُ الزُجاجَةِ صَدعُها لَم يُجبَرِ

3.3. الشعر الإصلاحي في العصرين الأموي والعباسي (النقد الاجتماعي والزهد)

في العصر الأموي، ظهر الإصلاح في ثنايا الصراعات السياسية، أما في العصر العباسي، فقد تبلور في **شعر الزهد**. في العصر العباسي، انتشر المجون والزندقة كرد فعل على الترف، فنهض شعراء مثل **أبو العتاهية** لإصلاح المجتمع بتذكيره بالفناء والزهد. وكان خطاباً مباشراً يميل إلى التبسيط ليفهمه العامة، وهدفه صدم الضمير الجمعي للعودة إلى الفضيلة. **قال مسكين الدارمي**:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ من لَا أَخا لَهُ ... كساع إِلَى الهيجا بِغَيْر سلَاح

وقال أبو العتاهية:

يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ ... إِذا ما هُوَ ماشاهُ
وَلِلقَلبِ عَلى القَلبِ ... دَليلٌ حينَ يَلقاهُ
وَلِلشَكلِ عَلى الشَكلِ ... مَقاييسٌ وَأَشباهُ
وَفي العَينِ غِناً لِلعَي ... نِ أَن تَنطِقَ أَفواهُ
وَلا تَصحَب أَخا الجَهلِ ... وَإِيّاكَ وَإِيّاهُ
فَكَم مِن جاهِلٍ أَردى ... حَليماً حينَ آخاهُ
وَذو العُرِّ إِذا ما اِحتَك ... كَ ذا الصِحَّةِ أَعداهُ

4.3. الشعر الإصلاحي في العصرين المملوكي والعثماني (عصر الانحطاط)

وُصف هذا العصر غالباً بالركود الفني، لكن الشعر الإصلاحي استمر عبر المدائح النبوية والقصائد التعليمية. وقد عانى الشعر من "الزخرفة اللفظية" والضعف المعنوي، فكان الإصلاح يتجلى في محاولة الحفاظ على الهوية العربية واللغة من الاندثار في ظل الأعاجم. وغلبت عليه الصناعة والتكلف، وافتقر إلى الروح الحيوية التي ميزت العصور السابقة، ومع ذلك كان حصناً للغة العربية. قال ابن الوردي:

أيْ بنيَّ اسمعْ وصايا جَمعتْ ... حكماً خُصَّتْ بها خيرُ الملْ
اطلبِ العلمَ ولا تكسلْ فما ... أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسلْ
واحتفلْ للفقهِ في الدينِ ولا ... تشتغلْ عنهُ بمالٍ أوْ خَوَلْ
واهجرِ النومَ وحصِّلْهُ فَمَنْ ... يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ
لا تقلْ قدْ ذهبَتْ أربابُهُ ... كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ
في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدى ... وجمالُ العلمِ يا صاحِ العملْ
جمِّلِ المنطقَ بالنَّحوِ فَمَنْ ... يُحرمِ الإعرابَ في النطقِ اختبلْ

5.3. *الشعر الإصلاحي في العصر الحديث (النهضة والإحياء)*

بدأ العصر الحديث بحركة إحياء التراث التي قادها **محمود سامي البارودي**، الذي سعى لإصلاح الشعر عبر العودة إلى جزالته القديمة. وارتبط الإصلاح هنا باليقظة الوطنية ومحاربة الاستعمار، وظهر شعراء مصلحون مثل **أحمد شوقي وحافظ إبراهيم** الذين نظموا في القضايا الاجتماعية، وتعليم المرأة، ومحاربة الجهل. ونجح شعراء هذا العصر في الموازنة بين "جزالة اللفظ" و"قوة المضمون الإصلاحي"، مما جعل الشعر محركاً للجماهير. قال حافظ إبراهيم:

الأُمُّ مَدرَسَةٌ إِذا أَعدَدتَها ... أَعدَدتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعراقِ
الأُمُّ رَوضٌ إِن تَعَهَّدَهُ الحَيا ... بِالرِيِّ أَورَقَ أَيَّما إيراقِ
الأُمُّ أُستاذُ الأَساتِذَةِ الأُلى ... شَغَلَت مَآثِرُهُم مَدى الآفاقِ

6.3. *الشعر الإصلاحي في الجزائر (الهوية والثورة)*

يمثل الشعر الإصلاحي في الجزائر حالة فريدة، حيث التحم بالدين والوطنية لمواجهة المسخ الاستعماري الفرنسي. و قادت **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** بقيادة **عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي** حركة إصلاحية كبرى كان الشعر سلاحها، وتركزت أهدافهم على تثبيت العقيدة، والاعتزاز باللغة العربية، والوطنية، والتمهيد للثورة، واتسم الشعر الجزائري الإصلاحي بكونه **خطاباً تربوياً ثورياً**، لم يكتفِ بالوعظ بل دفع نحو العمل المسلح لتحرير الأرض. قال ابن باديس:

شعب الجزائر مسلم

النتيجة: يتضح أن الشعر الإصلاحي انتقل من **"حكمة الفرد "**في الجاهلية إلى **"عقيدة الأمة "** في الإسلام، ثم إلى **"نقد المجتمع "**في العصر العباسي، وصولاً إلى **"سلاح التحرير "**في العصر الحديث، لا سيما في الجزائر حيث صار الشعر والشعار الديني والوطني قوة واحدة لا تتجزأ .إن رواد النهضة أمثال الطهطاوي والبارودي والإبراهيمي جعلوا من الكلمة وسيلة للبناء الأخلاقي قبل الجمال الفني.

4. خصائصه الفنية

- **الموضوعية :**يبتعد عن الغزل واللهو، ويتجه إلى قضايا الأمة.
- **الوضوح والبساطة :**لغة مباشرة لتصل إلى عامة الناس.
- **الوظيفة التربوية :**يهدف إلى غرس القيم الدينية والاجتماعية.
- **الرمزية أحياناً :**خاصة في مواجهة الاستعمار، حيث يوظف الرمز لتجنب الرقابة.
- **التكرار والإيقاع :**لتأكيد الرسالة الإصلاحية وترسيخها في الأذهان.